

عنيزة وأهلها

في كتب الرحالة الأجانب

د. سعد الصويان



هنا مكتبي .. مكتبة للجميع

عنيزة وأهلها في كتب الرحالة الأجانب

سعد الصديان

السلام

حينما طلب مني الأخ صلاح الكرام أن أقدم محاضرة لهذا الجمع الكريم احترت قليلا لأنه لم يسبق لي أن القيت محاضرة أمام صالون عائلي، فالمواضيع الجادة والخلافية قد لا تبدو مناسبة في مثل هذا السياق، والمواضيع الترفيحية أو الخفيفة قد يفهمها البعض على أنها مواضيع سطحية لا تستحق الطرح. ما أخرجني من هذه الحيرة وحدد موضوع محاضرتي أمامكم لهذا اليوم هو مقالة قرأتها في صحيفة اليوم للشيخ الجليل محمد الصفار نشرت بتاريخ ١٤ أبريل تحت عنوان "عنيزة: شعوخ ونساج" يتحدث فيها نساج أهالي عنيزة، كما كان الرميل عبدالله إبراهيم الكعيد هو الآخر كتب مقالة عن التسامح عنوانها "التمامي اللطيف بين عنيزة والقطيف" وحيث أنني ألقى محاضرتي هذه في صالون أحد عوائل عنيزة في المنطقة الشرقية قريبا من القطيف ومن الشيخ الصفار، وحيث لا يخفى عليكم أن موضوع التسامح أصبح موضوع الساعة، بل حاجة وطنية ملحة ينبغي علينا جميعا أن نسعى لتحقيقها والدفع بها وتجذيرها في مجتمعنا، لذلك كله رأيت أن أتطرق في هذه المحاضرة لحدود التسامح عند أهالي مدينة عنيزة وبحث جذوره التاريخية متندا في ذلك على ما كتبه الرحالة الأجانب عن هذه المدينة منذ القرن التاسع عشر. لكنني، إضافة إلى الحديث عن موضوع التسامح، وبحكم أن الكثير من الحضور الليلة من أهالي عنيزة، سوف أستغل مطولي أمامكم في هذه المناسبة لأورد بعض التفاصيل عن المدينة في سابق عيونا وعن أهلها وعوائلها وتجارتها حيث يبدو أننا مع ما نمر به بلادنا من تطور سريع نسيت الكثير من التفاصيل عن حياتنا الماضية، فلعلنا نستعيد بعض هذه التفاصيل هذا اليوم والتي وإن كانت تخص مدينة عنيزة تحديدا إلا أن الحضور ممن هم ليسوا من تلك المدينة لن يجدوا اختلافا كبيرا بين ما سأقوله هنا وما يتذكرونه عن مدنهم هم على اختلافها، سواء في نجد أو في المنطقة الشرقية أو أي بقعة من بقاع المملكة.

لقد لقيت عنيزة اهتماما منقطع النظير من الرحالة الغربيين الذين زارها العديد منهم وما سألتوه عليكم الآن لا يبدو أن يكون ترجمة حرفية لبعض المقاطع المختارة اقتطفتها من صفحات الكتب التي ألفها هؤلاء الرحالة الأجانب وسجلوا فيها انطباعاتهم عن مدينة عنيزة والتي زاروها ابتداء من بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين. أولهم كان الرحالة الإيطالي كارلو غوارماني الذي زار نجد عام ١٨٦٤م في طريقه بمدينة عنيزة وأمضى فيها على ما يبدو يوما أو بعض يوم. وبعده زارها تشارلز داوتي صيف عام ١٨٧٨م وأمضى فيها شهري مايو ويونيو وسجل خلال مدة إقامته فيها أدق التفاصيل عنها وعن أهلها ومعيشتهم وحياتهم اليومية. ثم زارها جعفر نيلبي عام ١٩١٨م وبعد ذلك زارها أمين الريحاني. وحينما قرأت الفصول التي تتحدث عن عنيزة في كتب هؤلاء الرحالة أذهلني اندفاعهم في إظهار المدينة ومدح أهلها، لذلك فقد حاولت أن أقتصد في الانتقاسات وأن أقتصر على البعض منها فقط حتى لا أتهم بالمبالغة والتحيز وتزيين الكلام، فما سوف أذكره ما هو إلا فيض من غيظ وما تحمله كتب الرحالة من ثناء على عنيزة أكثر مما سأذكره لكم بكثير.

زار الرحالة الإيطالي كارلو غوارماني نجد عام ١٨٦٤م في طريقه بمدينة عنيزة التي قال عنها إنها أكبر مدن نجد ويتاجر أهلها بالخيل التي يشترونها من البدو بعد فطامها ليربوها عندهم ويعلفوها حتى تكبر ثم يجلبوها إلى الكويت، ومنها تصدر إلى بلاد فارس والهند. وقابل غوارماني زامل السليم أمير عنيزة ونعنه بحدة الذكاء وتهذيب الطباع. وقال عنه إنه صحيح البنية متوسط الطول وأنه، على خلاف أهالي عنيزة، لا يحلق شعر شاربته ولا شعر رأسه الذي يجعله في أربع ظفائر

تتدلى عن الجانبين، كما يفعل أبناء البادية. وتدر غوارماني عمر زامل بحوالي ٥٥ عاماً. إلا أن المحرر الذي نشر كتابه أضاف ملاحظة تقول إن عمر زامل الحقيقي حينما قابل غوارماني كان ٢٥ سنة معتمداً في ذلك على تشارلز داوتي الذي زار عنيزة بعد غوارماني بعشر سنوات وقدر عمر زامل بحوالي ٤٥ سنة. ومعلوم أن زامل قتل سنة ١٨٩١ في معركة المليدا مما يعني أنه عاش إحدى وستين سنة تقريباً.

وبعد غوارماني زار عنيزة في صيف عام ١٨٧٨ الرحالة الإنجليزي ذائع الصيت تشارلز داوتي قادماً إليها من بريدة وقبل ذلك من حائل. يفتتح داوتي حديثه عن عنيزة قائلاً: كان زامل اسماً محبوباً إلى نفسي حتى قبل أن أقابله وأراه، فقد سمعت حتى خصومه من قبيلة حرب يشنون عليه. ويذكر داوتي أن لزامل ستة أو سبعة أبناء أصغرهم علي الذي كان عمره ١٢ سنة وهو يشبه أباه، إلا أن فيليبي فيما بعد سيذكر أن زامل خلف عشرة أبناء وست بنات وعبدالله هو أكبر أبنائه، ومن أبنائه علي الذي قتل في معركة المليدا وعلي من الأبناء عبدالله ومحمد. ومن أبناء زامل أيضاً صالح الزامل الذي قتل في وقعة جراب ويحي الذي توفي دون أن يخلف أبناء ومحمد وإبراهيم وعبدالعزیز، أبو عبد الرحمن للعبد العزيز.

في اليوم الذي وصل فيه داوتي إلى عنيزة أخذه علي الشيجتان أحد رجائيل الأمير زامل إلى مجلس الأمير تمت منذمة الجامع في المكان الذي يسميه أهل عنيزة "المجلس" في السوق التجاري، وبالقرب من سوق الفماش، ليس بعيداً من بيت الأمير في حارة الخريزة. وجد داوتي زامل جالساً على دكة من الطين، أو ما يشبه العتية، وسيغه إلى جنبه. وبعد أن قرأ الأوراق الثبوتية التي ناولها إياه داوتي أجلسه بجانبه يتحدث إليه ريوآنسه. وما أن داوتي كان قد زار بيت المقدس عدة مرات أطلق عليه الأمير زامل لقب "الحاج خليل". يصف داوتي زامل بأنه إنسان متدين بطبعه وصريح ومُحِبُّ ضمير وقال لا غرو أنه نظراً لمعدنه الطيب سيكون شخصاً طيباً ومثالياً أيا كان الدين الذي يعتنقه أو الجنسية التي ينتمي إليها. فيه أناة وبرودة أعصاب تساعد في أحلك الظروف على التفكير الهادئ السليم واتخاذ القرارات الصائبة. يحب العدالة ويتعامل مع الجميع برفق ولين. ولم يأت إليه أحد أياً كان، بما في ذلك البدو النزقين بطبعهم، إلا واستل منه الفليظ يصبره المعتاد وتحمله وحكمته وإتسامته الهادئة وكلماته الطيبة ولا تسمع منه إلا قوله: يكون خير أنشأ الله. وعلى عكس عبدالله اليحي، الأمير السابق الذي اشتهر بالتبذير والكرم المسرف مما أدى إلى أن يتوقى مديونا، فإن زامل مقتصد ومدير لأنه يعيش فقط على ما تكسب يمينه ولا يثقل أهل مدينته بالضرائب الباهظة. فهو لا ينفق على أي ضرائب على الألباش والدكاكين والبيرت، يفرض فقط خراجاً على الزروع والنخيل تتراوح من خمسة إلى سبعة بالمائة يذهب معظمها لبيت المال والمضيف. وتجار المدينة أكثر ثراء منه والي بعض منهم يتبرع سنوياً للأمانة بحوالي عشرة ريالاً.

أمضى داوتي يومه الأول ضيفاً على علي الشحيفان في منزله لينتقل بعد ذلك ويسكن في أحد الدكاكين الذي بدأ منه يزاول التطبيب. ثم انتقل بعد ذلك إلى بيت صغير بجوار أحد الأشخاص الذي قال إنه من رجائيل الأمير. هذا الرجل وأمه شملدا داوتي يحفظهما وكانت الأم الطيبة تعد له الإفطار والعشاء يومياً وتملا قريته بالماء وترعى شترونه وتعامله كأحد أبنائها. ولم تحل إقامته بهذا البيت حيث انتقل إلى مسكن آخر بالقرب من الدكان الذي كان يمارس فيه التطبيب.

بعد الظهر من يومه الأول في عنيزة تناول داوتي قهوة بعد الظهر في قهوة زامل التي قال إنها مفروشة بالحصير بدون سجاد، وهذا الحصير من نوع الداد التي يجلبونها من الأحساء. وكانت جدران

القهوة مزينة بالزخارف الجصية. وكان عبدالله، ابن الأمير زامل، يجلس خلف الوجار يدخن غليونيه ويرعد القهوة للضيوف، وقد قدر داوتي عمره بحوالي ٢٠ سنة. أثناء ذلك دخل علي السليم، عم زامل ونائبه في منصب الإمارة الذي ينوب عنه حينما يضطر زامل للذهاب إلى ميدان الحرب للدفاع عن البلد. يصف داوتي علي هذا بأنه وهابي متزمت لم يسلم عليه ولا حتى كلمه أو نظر إليه لعلمه أنه نصراني. وعلي السليم، مثل غيره من أهالي عنيزة، يتاجر بالإبل. ولما خلى المجلس من الضيوف كشف زامل عن ذراعه للحكيم، أي الطبيب داوتي، وسأله إن كان لديه علاج لحساسية مفرطة يشكو منها وحكة شديدة أدت إلى تقشر الجلد من ذراعه وتورمها، ^{وهو يبرر ذلك أسلما مسبوقة حارة} تختلف طباع أهالي عنيزة المتحضرين عن أهالي حائل الأقرب إلى البداوة والذين يرجفون خوفا بحضور أميرهم ابن رشيد. أما هنا فالناس أحرار وأميرهم يتعامل معهم كواحد منهم. ويتمتع أهالي عنيزة بحرية مدنية تبعث على الإعجاب فلا يتكبر عليهم أمراؤهم وقد يتصدى أغقرهم للامير يعارضه في وجهه ويرد عليه وربما يشتد به الغضب ويتهجم عليه، لكن زامل الحليم يتحمل ذلك بكل صبر وكل ما يرد عليه به هو أن يقول له: عين خير يا ابن الجراد، عين خير الله يهديك. وينقل داوتي مثل هذه العبارات بلهجتها العامية لكنه يوسمها بحروف لاتينية.

وفي اليوم الأول جاء عبدالله الخنيني وسلم على داوتي بمنتهى اللطف وأضعا يده بيده وترجاه أن يذهب معه إلى منزله للعالجة أمه المريضة. والخنيني، الذي قدر داوتي عمره بحوالي ٤٠ سنة، من تجار عنيزة المرموقين أتت ثروته من القمح الذي ترتفع أسعاره وتخفض بدرجة كبيرة ومفاجئة مما يتيح هامشا من المضاربة وتحقق الأرباح لمن يعرف كيف يستثمر هذه التقلبات في السعر. وقد سافر إلى الشام والهند وأماكن أخرى، وله أملاك في البصرة تركها تحت رعاية أخيه صالح، وأبوه بقيم في بغداد منذ حوالي ثلاثين سنة. وقد قدر داوتي قيمة بيت الخنيني في عنيزة بما يعادل ١٠٠٠ ريال ولو أجبر لكان أجاره السنوي حوالي ١٥ ريال. وقال داوتي إن بيوت الطين في عنيزة محكمة البنبان وقد تعمّر إلى أكثر من ١٠٠ سنة. ووجد داوتي في قهوة الخنيني في أحد الرواقين، أي الرف الذي يحفر في الجدار، بعض الكتب، منها موسوعة البستاني المطبوعة في بيروت.

ويعمل الكثير من أهالي عنيزة بتجارة الخيل والإبل والأثرياء منهم يملكون الأراضي والمزارع. ومن يذهب منهم إلى مكة عادة يشتري من هناك عبيدا يبيعهم في القصيم أو العراق ويحصل جراء ذلك على ربح جيد. وقدر داوتي عدد التجار المعتبرين في عنيزة بحوالي ١٥ شخصا. وقال له عبدالله الخنيني إن ثروة أكبر التجار في عنيزة تقدر بحوالي ٢٤٠.٠٠٠ جنيه. وقال بأن أرباح القرض لمائة ريال قد تصل إلى ٢٠٪ إن دفعت نقدا أو من ٢٠ إلى ٥٠٪ إن دفعت تمرا أو قمحا. وقد أبدى الخنيني وغيره من الفلاحين وملاك الأراضي اهتماما خاصا بطرق حفر الآبار الارتوازية ومواطير الضخ ليستعصبوا بها عن السواني التي لا تجذب من ماء البئر ما يكفي لري المزارع الكبيرة مما اضطرهم إلى تقليص المساحات المزروعة إلى ما يقارب ثلاثة أكرات أي حوالي ١٢.٠٠٠ متر مربع. وقد اضطحب الخنيني داوتي إلى مزرعته "العيارية" التي تقع في حارة الجناح ورأى هناك عربة بعجلات تستخدم لنقل التربة والسماد في المزرعة، وهي العربة الوحيدة التي رآها داوتي في نجد، وقال إن رؤية عربة في نجد شيء أغرب من رؤية بعير في شارع بيكادلي بلندن.

في صبيحة اليوم الثاني ذهب داوتي مع علي الشحيتان لتناول الإفطار عند الأمير زامل وجلس ثلاثتهم، الأمير وداوتي ورجل الأمير علي المائدة. وتعجب داوتي من دماثة خلق الأمير وبشاشته في التعامل مع خادمه على قدم المساواة دون تمييز أو تعالي. ويتألف الفطور من خبز التنور والربط واللبن.

ويمتدح داوتي نوعية الرطب في عنيزة ويقول إن ريالا واحد يشتري ثلاثين رطلا من التمر. وفي الغداء بعث له الأمير برجل خروف قال إن قيمتها حوالي ٥ قروش. وقال أيضا إن البدر يجلبون إلى المدينة غزلانا يبيعون الواحد منها بسبعة قروش. وفي اليوم التالي جاء علي السليم، نائب الأمير، وطرده النصراني من الدكان الذي يقيم فيه لأنه دكانه ولا يريد أن يتجسس النصراني. وبعد الظهر ذهب داوتي إلى بيت زامل لعرض الأمر عليه ووجده جالسا على عتبة الدار وقال له زامل لا تريد الدخول إلى القهوة لأنها مليئة بشيوخ البدو. وكان شيوخ مطير قد وفدوا على زامل في ذلك اليوم للتشاور معه في هجومهم المتوقع ضد قبيلة قحطان. كانت مطير موالية لعنيزة بينما كانت قحطان موالية لبريدة. ذهب زامل وداوتي يتمشيان حتى وجدا ظلا تحت أحد الجدران وجلسا على الأرض يتحدثان. وطلب الأمير من خادمه أن يبحث لداوتي عن مكان آخر يقيم فيه.

فقد دارتي سكان عنيزة حين زارها بحوالي ١٥.٠٠٠ وفي يوم الجمعة تزدهم الأسواق بالناس، خصوصا البدو والفلاحين الذين يقدون إلى المدينة من مزارعهم الثانية للصلاة في المسجد الجامع. وقال دارتي عن أهل عنيزة أنهم أناس متحضرون متأنفون في ملابسهم وماكلهم وتعاملهم، وحتى طريقتهم في المشي والحركة ويحيون بعضهم بعضا بلطف وبشاشة. والبعض منهم يلبسون الطرابيش، خصوصا منهم التجار الذين يكتفون من الأسفار إلى الخارج وبعضهم يلبس ما يسمى الشطلة أو العقال المقصب بالزري. والأثرياء منهم يلبسون المشايخ المعمولة في العراق. وذوي المراكز الاجتماعية المرموقة يحملون الخيزران في أيديهم والأمراء يحملون السيوف.

ومن مظاهر التحضر التي لاحظتها دارتي على أهالي عنيزة أنهم يتناولون طعامهم على مبل ويتحدثون ويتناقشون أثناء الأكل، على خلاف البدو وأهل نجد عموما الذين يزددون الأكل بصمت ويلتهمونه بسرعة وينفضون. وبعض أطباق الأطعمة التي يقدمونها قريبة من الأطباق الموجودة في الأمصار والعواصم المتحضرة، فهم يقدمون أطباقا من الفراكه والخضار النيئة والمطبوخة ويدخنون النارجيلة ويشربون أنواع مختلفة من الشروبات والعصيرات المعمولة من الليمون ومن تمر الهند والتي يقل إنهم على خلاف الأوربيين الذين يرتشفون عصيرهم ببطء فإن أهالي عنيزة يكرعون العصير في نفس واحد والخادم واقف على رأسك ليأخذ منك الكأس الفارغ، وعلى الرغم من تاصل شرب القهوة عند أهالي عنيزة إلا أن فيليبي سيذكر لاحقا أنهم لم يعرفوا الشاي إلا منذ ٢٥ سنة قبل وصوله لها. والبعض منهم لكثرة أسفارهم يعرفون لغات أجنبية مثل الإنجليزية والهندوستانية. وفي مجالسهم يتباحثون في الشؤون الدولية والخلاقات بين تركيا وروسيا وبين فرنسا وبروسيا ويعرفون بسمارك والإسكندر قيصر بروسيا.

وبعد يومين من إقامة داوتي في عنيزة جاء إليه عبدالله العبد الرحمن البسام رئيس بيت البسام واحد التجار الذين يتاجرون مع مدينة جدة والصديق الحميد لعبدالله الغنيني حيث أن الاثنين لا يكادان يفترقان أحدهما عن الآخر. وشكلان مع الأمير زامل فلاسفة عنيزة الثلاثة، كما يسميهم داوتي. ومن أصدقائهم أيضا شخص يدعي ناصر السمييري as-Smiry الذي يكبرهم سنا، وهو من أهالي عنيزة الذين يتاجرون مع مدينة جدة ويشترك مع الغنيني في تجارة الخيل. ويصف داوتي البسام قائلًا إنه عريض الوجه سمح المحيا أتيق الهندام حلو الحديث فصيح المنطق لا يتلفظ إلا بالكلام المليح. رجل عاقل وحكيم لكنه مع ذلك مرح وبشوش يحب الخير للجميع ويسارع إلى إسداء المعروف، حتى أنه كان هو الذي يتولى أمر إطعام وترحيل الجنود الأتراك الذين يفرون من الجندية ويمرون في طريقهم مدينة عنيزة. ويتمتع ابن بسام بسمعة طيبة في كل نجد ويحترمه الجميع. وكان

هو الذي سعى منذ سنتين إلى إبرام الصلح مع ابن رشيد وذهب هو وعبدالله اليحيي السليم والشيخ عبدالله ابن عايض إلى مخيم ابن رشيد ليقتنوه بالانسحاب وفك الحصار عن بلادهم.

وتعرف داوتي على حمد اليحيي السليم الذي دأب على استقباله والاحتفاء به في مزرعته وأبدى داوتي إعجابه الشديد بالتعامل اللطيف الذي حظي به من قبل أم حمد اليحيي. وقال إن يحيي، أبو حمد، الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً كان أمير حارة الخريزة سابقاً. وكان عبدالله اليحيي السليم، الابن الأكبر ليحيي، وعم زامل هو الساعد الأيمن للأمير زامل، ويقول داوتي إن بيت اليحيي لا يعرف التزمت ولا التعصب وأن يحيي بالرغم من كبر سنه قال لهم عن داوتي الذي يسميه أهالي عنيزة خليل بن خليل مسيحي وكتاب المسيحيين هو الإنجيل الذي هو أيضاً كلام الله.

وتكلم داوتي عن العمال الذين يحفرون الآبار ويعملون في مقاطع الحصار، وقال إنهم يتقاضون أجوراً مجزية لكن العمل ادة سنتين في هذه المهنة الشاقة والخطيرة كثيل بأن يؤدي بحياة الإنسان لأنهم يتنفسون الغبار المتطاير من الصخور مما يؤدي إلى تفتت الرئتين، معظم الأمراض التي يعاني منها أهل القصيم أمراض العيون والطحال والحمى والجذري، وأنواع عديدة من الأمراض الفامضة يسمونها ربح. ومرض الجدري كثيراً ما يؤدي إلى ذهاب البصر في أحد العينين أو كلاهما. ويقول داوتي إن طريقتهم الخاطئة في التطعيم أدت إلى وفاة ما لا يقل عن ٥٠٠ شخص.

وعلى الرغم من القلاقل بين مختلف المدن والقبائل في المنطقة إلا أن زامل بطبيعته رجل أمن وسلام لا يحب الحرب وينزع دوماً نحو السلم لما يراه في ذلك من مصلحة للناس وتشجيع للتجارة والمساواة. حب زامل للسلام ليس جبناً منه لكنه بطبعه ليس سفاحاً ولا يحب سفك الدماء. ومع ذلك يقول عنه داوتي إنه قائد شجاع ومظفر يعرف كيف يرسم الخطط الاستراتيجية، أثبت حنكته في أكثر من مناسبة، حيث كان قائد كتيبة أهل القصيم في الحملة السعودية ضد البريمي، وكذلك في حرب عنيزة مع محمد بن سعود وحريمهم مع قحطان في كيون دخنة.

يقول داوتي إن حلفاء عنيزة من البدو هم مطير وعتيبة، بينما يتحالف القحطانيون مع بريدة. وصدف أن فريقاً من قحطان نهب حميراً لأهالي عنيزة على أطراف المدينة، لذلك حينما هبط أحد القحطانيين للتبضع من عنيزة قام بعض الأهالي بإلقاء القبض عليه واقتياده للأمير. ويقول داوتي لو كان ذلك في حائل أو بريدة لقام رجال الأمير وجنوده بهذه المهمة، أما في عنيزة فإن الأهالي أنفسهم هم الذين يقومون بحفظ الأمن فيها ولكن بطريقة حضارية تخلو من العنف والغلبة.

وفي آخر أيامه بدأ داوتي يشعر بمضايقة الناس له ويقول بأن إمام المسجد صار يحرض الناس ضده فصار الأطفال يرمونه بالحجارة أينما ذهب وتكرر له العديد من الأصدقاء والناس الذين قال إنه لم يتوان في السابق عن تقديم العلاج لهم. وكان علي السليم، نائب الأمير، وعبدالله ولد زامل هم أكثر من سبب له المتاعب. ولم يملك الأمير زامل ولا الخنيزي والبسام أن يفعلوا شيئاً لمساعدة داوتي خوفاً من الرأي العام في المدينة. وفي ليلة من الليالي أجبره الأمير علي على مغادرة عنيزة وأوعز إلى أحد الجماميل أن يذهب به إلى مدينة الخبراء، وهذا مما ضاعف قلق داوتي حيث أن الخبراء كانت تابعة لمدينة بريدة، إلا أن معاملة أمير الخبراء عبدالله العلي له، على خلاف الأهالي، اتصفت بالتسامح خصوصاً وأنه يطمح أن ينجح داوتي في علاج عيون أبيه الذي كان قد فقد البصر. وبعد ثلاثة أيام من إقامته في الخبراء أرسل الأمير زامل يستدعيه ليعود إلى عنيزة من أجل الذهاب إلى جدة مع قافلة السمن التي كانت تستعد للانطلاق إلى الحجاز. ولم يسمح زامل لداوتي أن يعود إلى داخل المدينة وإنما أسكنه في بستان يقع خارج المدينة في انتظار مغادرة القافلة، وهذا البستان الذي يقع

إلى الجنوب قليلا من العيارية يعود إلى تاجر من أهالي عنيزة اسمه رشيد. كان رشيد، صاحب المزرعة غانبا وتولى أخوه إبراهيم الاهتمام بها، كان إبراهيم هذا ممن شاركوا في حفر قناة السويس مع آخرين من عنيزة وبقيّة بلدان القصيم. وكان ابن بسام والخفيني هما اللذان أقنعا زامل بأن يستدعي داوتي من الخبراء ليسكن في ذلك البستان خارج المدينة تجنباً للشغب حتى يحين موعد انطلاق قافلة السمن. وقد أمضى داوتي ستة أسابيع في مزرعة رشيد التي تبعد حوالي ثلاث كيلوات عن عنيزة نبي انتظار مغادرة القافلة الذي تأجل إلى ما بعد معركة بخنة بين أهالي عنيزة ومعهم مطير ضد قحطان والتي سقط فيها شيخ قحطان حزام بن حشر، وهو الذي رثاه حويدي العاصمي القحطاني بقصيدته المشهورة:

رحنا وخلينا وديع الحفايا // على نقي مع ايسر القور نزال
مطوا على قبره رفيع البنايا // ورحنا منه مع طلعة الشمس حوال
لى واجملنا اللي بشيل الروايا // لى قريوا للشيل وثنات الاجمال
لو كل الاربع من خفوفه بمايا // ما هوب من كثر التعاليق ملال
غدى بيوم لا سفته الروايا // من فوق عد جنبه كل همال

وحتى بداية النصف الثاني من القرن العشرين ظلت عنيزة محتفظة بتخطيطها العمراني وبيئتها الاجتماعية وعاداتها وتقاليدها تماما كما وصفها داوتي. فقد ظلت الحارات والشوارع والمزارع والأسواق التجارية محافظة على سماتها وأسمائها. من الحارات التي ذكرها داوتي ولا تزال على قيد الوجود بأسمائها القديمة الخريزة وأم حمار والجديده والضليعة والعقيليّة والشعبي والجناح والملاح والضبط والسفيل والوملان. وتفصل بين هذه الحارات مساحات من المزارع وتتخللها الأزقة الضيقة التي تغطي معظمها أشجار النخيل وعادة ما يفصل الشارع بين جزئي البيت اللذين يصل بينهما جسر يسمونه "قبة".

ومن الأسواق التجارية يذكر داوتي المجلس والحياطة والمسوكف والقاع وأم العصافير والدكاكين لها عتبات يعرض عليها البائع سلعته في محاور وأوعية من الخوص، كما يجلس أصحاب التاجر ورفاقه على هذه العتبات للتحدث معه ولتنشيط حركة السروق من خلال مسامحاتهم مع الدلائل الذين يشرعون الأسواق جيئة وذهابا يخرجون في مزاد علني على ما يحملونه معهم بأيديهم من بوايرد ورماح ودلال لعمل القهوة وعباءات وغيرها. ويصف داوتي الحركة التجارية والصناعات التقليدية في عنيزة قائلا إن الحرفيين من الصناعات يصنعون الأسلحة والأواني المنزلية، وهناك النحاسين والصاغة والتجارين الذين ينتجون الصحف والأبواب وأشدة الإبل والمحال والدراج للسانية، ومنتجاتهم تقي بالغرض لكنها تفتقر إلى الأناقة لبدائية المعدات والأدوات التي يستخدمونها. وهناك من يعملون بقطع الأحجار وحفر الآبار والفروش المستخدمة في لوازم الفلاحة مثل اللزا والساقني. وهناك من ينحتون من الرخام ما يسمى نقيرة وهي على شكل شاولي يستخدم لسحن البن والهيل والبهارات. إضافة إلى البنانيين وعمال الجبس، وكذلك الخياطين والمطرزين والخرازين. واكتسب صناعة عنيزة شهرة في الحجاز لإتقانهم فن النقش والزخرفة على الذهب والفضة.

ومن ضمن البضائع المتوفرة في أسواق عنيزة، إضافة إلى باعة الأطعمة والمأكولات، يجد الإنسان مختلف أنواع الأعشاب والأدوية المستخدمة لعلاج البشر والحيوانات، وكذلك السكر ومختلف أنواع البهارات والأبازير والأقليات والصابون الشامامي (أبو عنز) الذي تجلبه قوافلهم من مكة والمدينة. وفي مكان منعزل يجد المرء أسواق الحرير حيث يباع البصل والبيض والملح والكبريت والمسامير والخبز

والثمن. وفي يوم الجمعة تغص الأسواق والمجلس بالنساء المحجبات اللاتي يجلبن مختلف أنواع الطيور من حمام ودجاج ومنتوجات زراعية، إضافة إلى القرب المدبوجة والصملاان. سوف نتحدث عن فيلبيني وانطباعاته لاحقاً لكن لا ينس هنا من استباق الأحداث لاستكمال المشهد التجاري في المدينة. كانت قد اتفقت زيارة فيلبيني مع حلول عيد الأضحى ورأى كيف تجلب الأغنام إلى سوق المدينة والتي تتراوح أسعارها من ٧ إلى ١٠ دولارات. ويقول فيلبيني إنه رأى دلالاً يجلب بندقيتين أحدهما ماوزر ألمانية صناعة ١٩١٦ قيمتها ٤٠ دولاراً والأخرى أم نصف خشاب إنجليزية جديدة قيمتها ٤٦ دولار. ومن أنواع البنادق الأخرى التي رآها فيلبيني مع الدلالين الشرفا الانجليزية والصمعا ولم احدعش ولم تاج.

تختلف ظروف مجيء جون سانت فيلبيني إلى عنيزة عن ظروف مجيء داوتي، قدم فيلبيني إلى عنيزة ضمن موكب الملك عبدالعزيز الذي كان حينها قد أحكم قبضته على كامل المنطقة القصيم ويخوض معارك صارية مع ابن رشيد في نواحي جبل طي. ومع ذلك جاء فيلبيني إلى عنيزة بتقبع خطي سلفه داوتي يحدق في الوجوه ويقتش في الأماكن بحثاً عن ذكريات داوتي، وقد وجد أن أسطورة داوتي، كما يقول، لا تزال عالقة في الأذهان. ومن يقرأ مذكرات فيلبيني يحس وكأن داوتي يحال عليه من كل ويشير إليه من بعيد ليرشده أين يذهب ومن يقابل، لذلك جاءت مذكرات فيلبيني لتؤكد ملاحظات داوتي وتسند بعض الثغرات فيها وتلقي أضواء كاشفة على ما يعثرها من غموض أحياناً وربما افتراء على بعض أهل المدينة أحياناً أخرى، فتعرف مثلاً من فيلبيني، وليس من داوتي، أن البستان الذي أمضى فيه داوتي ستة أسابيع في انتظار مغادرة قافلة السفن المنطلقة إلى الحجاز كان يقع في الملقا وأن المزرعة التي تولى عنه عندما رقيقه الجمال الذي أحضره من بريدة إلى عنيزة هي مزرعة إبراهيم السيف. كما نعرف أن السبب في شن المطاوعة حملة على داوتي هو مجاهرته بنصرانته وعدم مراعاته العتبة لمشاعر الناس الطيبين البسطاء، والأهم من ذلك أن مجيئه تزامن مع حلول وباء الجدري مما اعتبره البعض غضباً إلهي بسبب استعجالهم لذلك الكافر. كما يقولون، وقد قال عبدالله الحمد السليم لفيلبي أن داوتي كان يفتقر إلى الحنكة فلو أنه مثلاً إذا طلبوا منه أن ينهض للصلاة بدلاً من أن يجاهر بنصرانته قال: حلت البركة، وأمر بخبر، لسلم من أذى الناس.

في ٢٢ أغسطس من سنة ١٩١٨ حط فيلبيني رحاله في عنيزة بمعية الملك عبدالعزيز الذي كان في طريقه إلى بريدة. وأمضى فيلبيني في عنيزة ثلاثة أيام ليلحق بعدها بالملك عبدالعزيز الذي كان قد سبقه إلى بريدة. وبعد عشرين يوماً عاد فيلبيني من بريدة إلى عنيزة يوم ١٢ سبتمبر ليبقى فيها حتى ٢٤ سبتمبر، وقد حل ضيفاً على محمد بن سليمان الحمدان. يبدأ فيلبيني حديثه عن عنيزة قائلًا:

سبق لي أن سمعت الكثير عن الفرق بين عنيزة وغيرها من مدن نجد، عن كرم أهلها وحفاوتهم بالقرب وخلوصهم من أي تمصب ديني أو مذهبي، لكن يجب على أن أعترف بأن التجربة الواقعية أدهشتني وأفعلتني. بدا لي أنني فجأة خرجت من عالم بدائي لأج عالماً متحضراً يمتلك ثقافة عالية حيث يلقي الغرب داخل أسوار المدينة فرقاً ما يتصوره من الترحيب وحسن الضيافة بدلاً من أن يكون محل شك أو ريبه. وكنته ضيف على سكان المدينة جميعهم. وبالأخص أعيانها في إغداق كرمهم عليه دون رجعة أو هوانة. رضافتهم ليست فقط سخية ولكنها أيضاً في منتهى الذوق والترقيب والاناقة. إنها حقاً جوهرة المدن العربية

cities

ولعلنا نذكر بأن فيلبيني، وليس الرياحاني، كما يعتقد البعض، هو أول من أطلق لقب باريس نجد على مدينة عنيزة. وقبل فيلبيني أطلق داوتي على عنيزة اسم "أم نجد".

حينما وصل فيلبي إلى عنيزة كان أميرها السابق عبدالعزيز العبدالله السليم قد تنازل طوعا منذ سنة عن إمارة البلد لابن أخيه عبدالله الخالد البالغ من العمر حوالي ٤٠ أو ٤٥ سنة والذي كان أول من دعى فيلبي لتناول القهوة والإفطار في منزله. وبعد مراسم الاستقبال انتقل الأمير وضيافته والحضور إلى المختصر لنفث النخاع، ويقول فيلبي أنه لأول مرة رغم طول إقامته في نجد يمر بهذه التجربة التي يسمح له بها بالتدخين. وقد أمضى الأمير عبدالله الخالد ١٤ عاما فأارا من عنيزة أثناء فترة استيلاء ابن رشيد على المدينة من عام ١٨٩١ وحتى عام ١٩٠٤ وأثناء هذه الفترة زاول التجارة وتنقل في عدة بلدان ورار الهند. ويصف فيلبي الأمير السابق عبدالعزيز بأنه شيخ طيب المعشر عمره حوالي ستين عاما تعاير وجهه المسندق تنبعث منها الحكمة وتبعث على الارتياح والإطمئنان. وحينما سألهم فيلبي عن الكابتين شكسبير الذي من عنيزة قال الأمير عبدالعزيز إنه لم يقابله لأنه كان خارج المدينة مع الملك عبدالعزيز في أحد غزواته وكان أتاب عنه في الإمارة صالح بن زامل الذي استشهد بعدها بعام واحد مع شكسبير في وقعة جراب. لكن الأمير عبدالعزيز يتذكر دارتي حيث كان عمره آنذاك عشر سنوات. كما كانوا لا زالوا يتذكرون الرحالة الفرنسي تشارلز ميوير.

ومن ضمن من استقبلوا فيلبي ذلك اليوم محمد السليمان الحمدان شقيق عبدالله السليمان وزير المالية الذي دعاه لتناول القهوة وقد لاحظ فيلبي أن أثاث منزل محمد السليمان كان أفخم بكثير من أثاث بيت الأمير. كما تناول فيلبي القهوة عند عبدالرحمن عبدالعزيز الزامل، حفيد الأمير زامل الذي كان عمره ٢٥ عاما. ويقول فيلبي عن عبدالرحمن عبدالعزيز الزامل

محبة حفيد زامل هذا دائما تبعث السرور والبهجة في النفس، ضيافته لا تكلف فيها ومز شخص صريح وشفاف مما يحضر إلى ذهني تلك الصورة التي رسمها داوتي للأمير زامل وإن كنت قد سمعت بأن أقرب الأحياء شيئا في الخلقة إلى زامل إنه محمد وحفيدة زامل الصالح.

ومن أحفاد زامل الذين التقاهم فيلبي عبدالله ومحمد أبناء علي الزامل الذي قتل في معركة المليدا والتي قتل فيها أيضا خالد أبو الأمير عبدالله. ومن ضمن من قابلهم فيلبي أيضا محمد وإبراهيم أبناء الأمير زامل وقال عنهما إنهما كانا على تقيض أبيهما فيما يتعلق بالنساج والانتفاع.

وقابل فيلبي إبراهيم الحمد السليم وأخيه عبدالله الذين كانا في شبابهما من ضمن قافلة السمن التي اصطحبها داوتي إلى الحجاز. وقد سافر عبدالله في شبابه إلى كراتشي وبومبي والبحرين ومسقط. كما قابل فيلبي علي الصالح الخنيني ومحمد الحمد الخنيني، حفيد عبدالله الخنيني صاحب داوتي. ومر فيلبي من عند منزل عبدالله الخنيني الذي طالما استقبل فيه داوتي لكنه وجدته قد تداعى وتهدم. ونكر فيلبي أن عائلة الخنيني اشترت بستان نخيل في البصرة اشترته منهم فيما بعد القوات البريطانية ودفعت لهم قيمته ٤٠٠.٠٠٠ ريال لتقيم مكانه محطة توليد كهربائية.

ومن ضمن من احتفوا بفيلبي سليمان وعبدالعزيز الذكر وأبيهم يحيى الذكر الذي كان قد بلغ من العمر ثمانين عاما وأخيه مقبل الذي عاد منذ فترة قصيرة من البحرين ومنطقة الخليج حيث أقام هناك لمدة ٢٥ عاما يرعى مصالح الأسرة هناك. ويقول فيلبي عن عائلة الذكر أنهم شربوا وغربوا في كل أنحاء المعمورة، مثلهم مثل غيرهم من العديد من عوائل القصيم، ومنهم حمد بن محمد الذكر الذي سبق أن قابله فيلبي في العمارة بالعراق. ويقول فيلبي إن الملك عبدالعزيز تزوج بنت أخ مقبل الذكر ورزق منها بنتا. أما يحيى الذكر فقال فيلبي إن عمره ٨٠ عاما وقال عنه إنه أصم كعمود الرخام. لا يسمع. قال له الدكتور عبدالله سعيد الذي كان يرافق فيلبي مازحا: لا استطيع علاج الصمم الذي

تعاني منه ولكن إن كنت ترغب في جرعة من المنشطات الجنسية فعندي لك ذلك، فاجابه الشيخ يحي مبتسما: الحمد لك لم يحن الوقت بعد لذلك ولا احتاجها الآن، وقابل فيليبي إبراهيم القاضي، آخر الشيخ صالح القاضي الذي كان آنذاك يغتي رؤم صلاة الجمعة، كان إبراهيم شيخا متقدما في السن لكنه نشيط وقوي البنية بسبب موافقته على ممارسة الرياضة، وله ابن عم آخر اسمه أيضا إبراهيم اشتهر بالعلم لكنه لم يرغب في مقابلة فيليبي.

ومن استضافوا فيليبي فهد المبدالله البسام وهو شيخ كبير وبيته من أجمل بيوت المدينة وقال لفيلبي أنه لطالما شاهد داوتي يحضر لتناول القهوة مع أبيه في ذات المجلس الذي كان آنذاك يجلس فيه مع فيليبي. يقول فيليبي إن فهد كان طفلا صغيرا أثناء وجود داوتي في عنيزة ولصغر سنه كانت نساء البسام يرسلنه للتخصص لمعرفة من أي جهة من الصحن يتكل داوتي ليتجنب النساء أكل الطعام من ذلك الجانب ليخوفونه ويومونه لا تخطأ اعتقادا منه بنجاسة أنصراني، وقابل فيليبي أيضا عبدالرحمن البسام، أخا عبدالله البسام، صديق داوتي. وقال عبدالرحمن لفيلبي إن أخاه عبدالله دأب لعدة سنوات على جمع مواد ومعلومات ليؤلف موسوعة لاستعماله الشخصي، ويعد محمد البسام، آخر فهد، من أكبر التجار في دمشق.

ومن استضافوا فيليبي صالح الفضل وهو رجل شهم ومرح، وكان صالح أتى من الرياض لما علم أن الملك عبدالعزيز سوف يتوقف في عنيزة ليرجوه التوسط لدى الشريف حسين ليطلق أخاه وابن أخيه من الحبس في جدة، وكان الشريف حبسهما فقط لأنهما من رعايا ابن سعود. وعائلة الفضل لهم أملاك وتعاملات تجارية واسعة مع الهند وباكستان. وقابل فيليبي ناصر الشيبلي وأخيه سليمان وقال إنهما تأثرا في طابعهما وليسهما بأهل العراق لطول إقامتهما هناك.

كما قابل شيخ يبلغ السبعين من عمره هو البناء المشهور إبراهيم بن صالح الذي بنى معظم بيوت أثرياء عنيزة وبنى منذة الجامع منذ ٢٨ سنة وتقاضى مقابل ذلك مبلغ ٤٠ ريبالا وقال إن طوليا ٥٠ ذراعا أو ما يعادل ٨٠ قدم، ويفتخر بأن جميع البيوت التي بناها لم تسقط ويدعي بأنه أكثر مبالغة من ابن سلوم البناء المشهور في منطقة سدير والوشم.

وفي يوم ١٩ سبتمبر دعى الأخران عبدالله وعبدالرحمن البسام فيليبي لمصاحبتهم في رحلة إلى مزرعتيهما النهيرية والرميحية اللتين تقعان على حدود المدينة، وهناك قدما له مختلف أنواع الرطب من أنواع من النخيل كانا قد جلباها من البصرة وفي البريمي والحساوي والبحري وهناك شاهد أول برحية نقلها البسام من البصرة إلى عنيزة منذ ٢٥ سنة. كما نقل البسام من الزبير إلى عنيزة بطبخ الفريديون الحلو الذي يتفوق في حلاوته وطعمه على الأنواع المحلية. بعد الفداء أطلع عبدالله البسام فيليبي على مجلد أثيق يحتوي على مشجر كامل لنسب حمولة البسام الذين هاجروا من موطنهم الأصلي أشيقر بسبب قلاقل حدثت هناك ليستقروا في عنيزة سنة ١١٧٣هـ، وكان أول من انتقل إلى عنيزة هو جدهم حمد البسام.

وعن الأمراض في عنيزة ذكر فيليبي الجعري وقال إن ضحاياها يمدل أربعة أطفال يوميا. ومن الأطباء الشيعيين الذين قابلهم فيليبي في عنيزة سليمان السعيد وقال إنه بالإضافة إلى الأمراض العصبية يعالج للجائنين والمختلين عقليا. وكان في بداية حياته عمل تاجرا في البصرة وأمضى هناك عشرين سنة ولما توفي أبوه نقل راجعا إلى عنيزة ليرث مهنة التطبيب عن أبيه المتوفى دون أن يتلقى أي تدريب عدا كونها مهنة أبيه من قبله. وقال له أنه قلما يتقاضى أجرا على عمله، والمرء الوحيدة التي تعدي فيها أجره كلمة شكرا كانت حينما عالج مبارك الصباح في مرضه الأخير الذي أدى إلى وفاته.

وبعد مدة وجيزة من مغادرة قبلي عبيرة راوما أمير الريحاني ولم يرد ذكر قبلي في كتابات الريحاني لكنه يذكر دارني كثيرا، وهذا يحملني على الظن بأن كتاب دارني المراتع في صحراء العرب هو الذي ألهم خيال من أتى بعده من الرحالة ويدعم إلى اقتفاء أثره يدخل الريحاني عبيرة من حينها الشرقية على طريق الرغيبية مرور بالعوشية والعوشية قرية صغيرة معزولة لكنها أشبه بأن تكون في بداية عبيرة الشريعة، فقد مر بها قبلي أيضا وتكلم عنها كلاما جميلا، يقول قبلي إنه لما وصل مع رفاقه إلى العوشية وجد قطيعا من الأغنام يبلغ عددها ٦٠٠ رأس تشرب من الماء أحبره لرعاة، الثلاثة ذهب للملك عبدالعزيز ونيا في طريقها إلى مخيمه في بريدة يقول قبلي أننا رجالنا عند قصير متعرون هو الوحيد في القرية والسوء حظنا كان صاحب القصر قد ذهب إلى عبيرة لعصا، بعض شؤونهم مما دعانا إلى اليأس من أن نقاوم القهوة عنده وننال تسلا من الراحة لكن طريقتنا السيئة تددت حينما أقبل علينا ابن صاحب القصر الذي لا يتعدى عمره عشر سنوات والذي ما أن علم بأن أنهنكنا التعب حيث أمصينا اليوم كله على الطريق حتى حبي بنا ورحب بشماسة وشبابمة كما لو كان رجلا بالغا من عبيرة الرحال ودعانا إلى الدخول إلى القهوة التي تلقى العتمة وغطى جدرانها السواد حيث لا يوجد فيها مفد واحد لدخان عدا عتمة صغيرة في الجهة الأخرى من السقف المعلقة عن موقف النار، بما أن استقر بنا المقام حتى تناظر علينا رعاة العنم والعديد من شباب العربي الذين لم تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة وتخلقوا حول هذا النصارى العربي الذي نزل عنهم فجأة من حيث لا يدرون لكنهم كانوا في منتهى السعد وأعدوا بالكثير من المعلومات المفيدة وماء العوشية مالح لا يستسغ لا للشرب ولا للطبخ ويجلبون ماءهم من أبار الرغيبية التي تبعد عنهم حوالي خمسة أميال، وصادف لحظة وجودنا بماء الماء عندهم لذلك استعار الصبي شيئا من مائنا في القرب ليعد لنا القهوة وعلمنا فيما بعد أن صاحب ذلك القصر هو علي بطرودي ويعول الريحاني.

العوشية قرية صغيرة حقيرة مقبرة لأن مرتبتها بسبب هذا القاع حلقا سحبه لا يصلح لزراعة أو عرس فيها ولكن أمضا مع الأرض حافت وجيبهم يدعونا للقهوة - تفصلوا بقهويكم - فقبلنا شاكرين جلسنا حول الموقد على الوسائد ورب البيت يحدثنا بينما هو يعمل القهوة، ثم أشعل السمين ودخ رقبته لئلا نل فاداره على الربع ثم جاءنا بحبيص يدعونه عيبطاً يعملونه من التمر واسمى استعدته واستعدته فضحك العوسجي لكرم، أشى على حريتي قائلاً، كأنكم من القصيم جاء، هذا العربي لعامل في المساء يرد الزيارة ويشرب القهوة هاردت إحداه به وكرم أحلاقه به قدم لربع شيئاً من التبع واعتذر قائلاً، لولا قلته والله زودناكم منه

وكانت ضيافة العوسجي فاتحة الصباغات في الأيام التالية بمنزلة القصيم، عبيرة حصن الحرية ومحط رحال أبناء الأمصار عبيرة قطب الذوق والأدب، باريس مجد، وهي أجمل من باريس إذا اشترعت عليها من اصغروا لأن ليس في باريس محبل وليس لباريس منطقة من ذهب الفرد بل في أجمل من باريس حين إشرافك عليها لأنها صغيرة وديعة خلابة بألوانها، كأنها صورة صورها كلود مانه Claude Monet لقصة من قصص ألف ليلة وليلة، وكأنها لؤلؤه في صحن من الذهب مطبق بالارور، بل قل إنها السكينة محسنة وقد بنت لها مسجداً بين النخيل، رائحة باقير من ذهب الزمائل، وكلتة مأكلي من الأش هي في مجوف من الأرض يحيط بها عاب من هذه الأشجار ليرد عنها زمال المود التي تهددها من الحيات الثلاث من الشمال والغرب والجنوب، قلت مرة لأهلبا أتم والنود قوم، مدعجوا مائكمه وتباقلوها إنها الحقيق ولا مبالغة فالقود تحاربهم بالرمال

قدفعها الرياح من كل جانب فتسقيها على المدنه، وهم بحاروبها بالمثل يورعونها عابضاً عروق الكُنْج خارج السور

قد تصغر عنيرة دون أهلها، وهم رها، ثلاثين ألفاً، لأن النفود ثقيدما فلا تستطيع القسوط والامتداد، فهي لذلك مزدحمة بالسكان وأكثر أسواقها كالسراييب لانهم يبنون فوقها الجصور التي يسمونها قُجِبَ وموق الجصور السوت ولكن هناك سوفاً للتجارة كبيرة منيرة تدهشك بما فيها من الأشكال والألوان، ففذكرك بأمركا وبلاد الإنكليز، وتنقلك إلى الهند واليابان، وتسمعك اللغات الإنكليزية والفرنسية والهندوسانية، ولهجات من العربية متعددة

وهي عنيرة أسر قديمة عريقة بالنسب والفصم وقد ساج أسارها في بلدان القصص والأمصاير شرقاً وغرباً فزادتهم السياحة لضعافاً واتصاعاً، فدعوا الضيافة إلى مقام تفتح عنده بواب البيوت وأقلوب صفاً أحل، إن العريف ليس في هذه المدينة كونه غريباً، مسواً أكان مسلح أم كافراً، صوحداً أم مشوكاً، فهو يشعر بها أنه بين الناس الضرا مثله والضرا فوق ذلك إكرام الصنف أياً كان فيستأنس أيما استئناس ويلبي دعواتهم مسروراً شاكراً

تفصل بقبوريت هي دعوه شديدة مدعوة لإنكلر للشاي وهي الصنف قدس شيء غير القهوة، غير الشاي جميل، فيهم ميل إلى الحديث والنعاف، ورغبة في لآفة والودد على من صباغة العربي العنبري قمنار عن ضيافة الإنكليزي في أن رب البيت يخدمك بنفسه من حين الاستقبال إلى حين إوداع وما أجمل ذلك إكرام وتلك الرداغة ولا سيما أن الفضيلتين نشأتا في عزه نفساً تحتاج إلى ألبه مزيدما

القبعة الاستقبال عندهم تدعى القهوة وهي عادة طويلة فسيحة عادة سافعة، وقد سقت بدشب لائل، عادم على أعمدة من لاجر مصية بالحص، لها نواهد مريوحة، الباعدة فوق الأخرى، لعائلة المدخن يحرق منها والرائحة للهواء، وعلى حواها رسوم هندسية مفتت بالحص فوق ارضية من الطين وهي الصدر محرق مستطيل لا يزيد إذا كمر على الثلاثة الأذرع هو الموقد يحلح عند رب البيت ويحلس إلى جنبه بنه أو أخوه أو أحد من أهله، فتشفي الواحد يعمل القهوة والأحر يدق البن في حور من اسحجر كبير شبيه بجرن الككه في لبنان، لا أن قطر ثقفه لا يريد كثيراً من قطر البنوع وعند رأس الموقد خزانتان واحدة للحطب والأخرى للمعاميل هنا قد قد اسجائس هناك ولا يصطر من مقف ليداول شيئاً منجها وأهم من كل ما ذكر الاناريق، وهي محور الدعوة وركن لصناعة انباري، انبارين النحاس الزواحة كائنها وصلت تلك الساعة من العمل في دمشق، وقد صنعت أمام المصيف صفا متناسقاً من الأول الصغير لذي يكفي صمغبر اني لعاشر الذي سعى منه صيف ويريد هذه شي القهوة عندهم وهي في شكلها برسمها ولون جدرناب رسقفها العالي وبورها اللطيف لذي فلما يمارحه نور الشمس، تعيد إلى ذمك صورة معد من معدب الأقدمين ففصحتك مجلال العيون والقدم

قال هنري موني في كلامه عن عبدالله البسام - وكان لجربه صوب شحي كانه جرس الصياغة مدمو الناس للقهوة

عند تعريب بن عبدالله ال سليم أص فها مرات بين الصلائير ريعها نصيلاً ومساء، لا لسمعنا حديثه، وما أحلاه، بل ليسمع حديثنا وكنت من باب حب الدات والاستفادة اناربه في السؤالات، عنتق من الحفرافعة إلى الزراعة، ومن أمريكا، كما كان بلغظها، إلى بلاد طي، ومن الأطباء إلى الشعراء هذا عبد الله بن خالد آل سميم أمير عتيبة وقد أنزلنا في القصر الجديد الذي شُدد حديثاً لعظمة

السلطان عبدالعزيز، ومد لنا في بيته سماعاً أرحمت فيه الألوام. وأنارته من شيم الأماجد البشاشة والوقار. ومدا عبدالله بن محمد ال بسمام له مزرعة خارج المدينة يشتمل في رفع المياه من البئر عشرة جمال، وهو مطوي بالحجارة محكم البناء.

أما في التساهل الديني فبين أهل عبيزة اليوم وأجدادهم بون شاسع، ليس في عبيزة اليوم من يضرب بالعصا من لا يصلي، فيسوق إلى المسجد كالأنعام من لا يلبيون دعوة المؤذن وليس في القصيم كله من أولئك الوهابيين، أمثال الإخوان اليوم، الذين اضطهدوا «النصراني الكافر» ميري دوطي وطردوه من البلدة لم يجد الرحالة الإنكليزي يومئذ عبر بضعة رجال والره، وأصافوه، وساعدوه في محنته، أهمهم ثلاثة هم أمير عبيزة يومئذ وعبدالله الخنيفي وعبدالله البسمام وقد ذكرهم دوطي في كتابه بالخير معتهم بالفلاسفة وأثنى عليهم ثناء طيباً

حدثني صديقه عبدالله قال كنت شاباً يوم جاء «خليل» إلى عبيزة وكان الخبيبي أكبر أصدقائه ومساعديه فاعضب سكان المدينة فسبوه وتجنبوه قالوا إنه كافر مثل الإنكليزي وما قد مر خمس وأربعون سنة وأنا أشاهد التطور عندنا. نعم الفرق كبير ثلاثة يومئذ والوا العريب علناً وأكرموا، ثلاثة فقط أما اليوم فلر عاد «خليل» إلينا لما وجد ثلاثة يسميئون إليه فعلاً أو قولاً أهل عبيزة اليوم بعضهم لأقل إساءة تلحق بالغريب في بلدهم

هذه مقتطفات يسيرة مما ذكره الرحالة الأجانب عن مدينة عبيزة وأهلها راعيت فيها الاختصار والاقتصاد حتى لا ينطبق علي المثل القائل قال من مداحته قال أمه ومشاطته وقد مر على عبيزة رحالة كثر منهم من مر بها مرور الكرام مثل الرحالة الفرنسي تشارلز هيوبر والرحالة الألماني حولموس بوتنغ والإنكليزي شكسبير، ومنهم من أطلال الإقامة فيها وأسهب في الحديث عنها مثل أولئك الذين تحدثنا عنهم لكن الرحالة الذي خلدها هو تشارلز داوتي الذي كتب عنها أربعة فصول تقع في حوالي منتي صفحة مليئة بالتفاصيل والمعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تسجل لأول مرة وتكاد تكون هي الوثيقة الوحيدة التي لدينا عن عبيزة من تلك الفترة وبكل هذه التفاصيل والأهم من ذلك أن داوتي سجل اسم عبيزة في التاريخ كحاضرة للتسامح الديني والاجتماعي في نجد، وتبعه في ذلك كل من جاؤوا بعده ونتمنى على أهل عبيزة أن يحافظوا على ميزة الكرم والتسامح والانفتاح التي حققت لمدينتهم سمعة عالمية وأن يكرموا سباقين إلي تواصل هذه المثل في المحتمع السعودي وربما يكون من الجدير بينهم أن يؤسسوا في مدينتهم جمعية لهذا الغرض تكون مربوطة بالنشاطات الثقافية والسياحية، كما قد يكون من باب رد الجميل لو سموا أحد الشوارع الصغيرة أو أحد صالات مركز ابن صالح الثقافي باسم داوتي

والآن اسمحوا لي أن أنهي هذه المحاضرة بمقتطفات من حزة من كتاب داوتي أتمن أنه أكثر الأجزاء ثارة وممتعة هو الجزء الذي يصف فيه رحلة قافلة السمن من عبيزة إلى الحجاز وما لاقوه في تلك الرحلة من مخاطر الطريق ومشاق السفر.

داوئي مصطحب قافلة السمن المنجحة من عبيزة إلى الحجار

بكرس داوئي الفصل السادس عشر في الجزء الثاني من كتابه لتحديث عن قافلة السمن التي يصطحبها من عبيزة إلى الحجار، لكنه أورد في نهاية الفصل الحاس عشر بدا بعهد ما سناي. مثل قوله إن عبيزة وحلفاها من مطير كانوا في حالة حروب مع قبيلة قحطان لكن الأمير وأهل أهل الموأحية منهم حتى عدم القافلة القادمة من الشمال، كما أهل مغادرة قافلة السمن إلى مكة إلى ما بعد المعركة وبعد ذلك يقول داوئي في الفصل نفسه، "والآن بدأ السمن في عبيزة يستظهرين عدتهم ويهبطون بها، حيث أن قافلة السمن المنجحة إلى مكة سوف تطلق قريباً بعد أن حضروا الرمل، وفي الإبل المعدة لحمل الأثقال، من مراتع في ابيادية وصباح نشاهد ما كل يوم وفي قروم في مراعي البقر المحيطة بالبلد. وكان عد غير في تلك الأيام مائة حمل النمر والحطة إلى المدينة ويحدث ذلك في عن توقف قافلة السمن خارج مدينة عبيزة ومجيء عدد النحوي إلى هناك ليودع داوئي وكبار حصد من حضروا موقعة نحة من عبيزة ومطير من جهة وقحطان من جهة أخرى على مرسة يقول داوئي

حاصي وكما على مرسة يقول قنوا صغيراً قال لي إنه وحده مربوطاً في أحد بيوت قحطان جاء به معه ومال لي، ليبرر فعلته، والا كان مات. ويصري القتل ولعب وراء العرس التي لا حبيب فيها، كما لو كانت به الجنون وتست الفرس ذلك القتل العريب وتدير عنقه نحوه لقرئ إليه وتخر به بحلف شديد

بعشما سوية وحدثني حمد عن لقاءهم مع قحطان قال بأنه ركد مرسة متسلحاً بسدقيته أم بطنه لكنه شتمني لي أنه كان من الصعب إعادته تنحير البارود من على ظهر العرس قلت سبب ذلك أنكم تركبوا الحيل معزاة ظهور ما عدم المعرفة ولو استخدمتم الحركاب لسهل عليكم ذلك وواقفي على صواب رأيي قال من غير المعركة كان من المكتوبة بحسب حجب الرؤية فم يتمكن من تقدير عدد سورت القحطاشين لكنها ربما بلغت في رأيه ٢٠٠ بيت. وعادة ما تدعى القافلة إلى مكة عن طريق دحة لكريم هذه السنة سوف يتجاشون ذلك الطريق بسبب روائح الجثث المتعفنة من القحطاشيين. رسالته إذا كانت القافلة ستسير طوال النهار الحار فاحتمال لا إلا كان الشمس تموع السمن ويخر من العكس. وقال إن القافلة سوف تضطر للسير ليلاً حرف من محطان وأن قافلنا سوف تلتقي عند الرس مع القافلة القادمة من بريدة. وجلس يتحدث معي مدة ساعة في ضوء القمر وعمرني حمد عن أسسه أن ينهي صداقتنا هذا العزاة السريع، وقال يمكننا أن نتواصل فيما بعد مع ركب وقال لي إنه سوف يعود في يوم الرحيل إلى مكان تجمع القافلة ليودعني الوداع الأخير لكنني لم أراه بعد ذلك ويبدئي الفصل الخامس عشر ويعقبه السادس عشر الذي يقول.

كان لليل قد أظلم حبيب وصلنا إلى محط القافلة، حيث حيا سليمان الخيني الحامس الذين كانوا قد سافروا إلى أماكن برفقة أحمالهم فدننا هؤلاء إلى المكان المخصص لنا في المحيم، حيث أن كل حمرة لبنا منزل تحطفيه وسبح إنها أصمه ما هي القهرة على البار في المكان المد لنا ورأيت عكس السمن التي تؤول إلى سليمان (ركان عددها أربعة وعشرين أو ما يعادل طنناً تقريباً) ملقاة على الأرض فانقطع أربع من هذه الحفك، التي تعادل الواحدة منها خمسة عشر صاعاً (من أصواع القصيم)، تساوي خمس بعير رقبتهما ثلاثون ريالاً ويأملون بالحصول على ستمين في مكة وقد مر بالمحيم النارحة جمع من أهالي عبيزة يودعون أصدقائهم وأخوانهم المعاصرين هذا المكان الذي تنجمع فيه القافلة التي تقصد مكة يقع وسط النجيل التي خارج البلد واسمه الوهلان.

أوصى عبدالله الحبيبي (قريبه) سليمان أن يهتم بأمري وكتب ابن مسام ذلك الشخص انطليب أوصى بي إسمه عبدالرحمن وأكد عليهما قبل الوصول إلى المحطة الأخيرة قبل مكة (سواء في وادي الليمون أو السيل) أن يخطئا عن "أدمي" بوصلني إلى جدة قبل الجول في حدود الأماكن المقدسة ولم يسبق للحبيبي طاهر انقلب أن حج من قبل، ولا يعرف الطريق ولم يحطو عنى بانه الحالي ما سوف أعرض له من مخاطر في نهاية هذه الرحلة

كان معنا في قافلة السمن ١٧٠ بعيرا -تحمّل حوالي ٢٠ طنا من السمن- ويصحبها سبعون رجلا منهم أربعون يعتلون مطاياهم، والبقية رعاة وجمالون كما منقسمين إلى حبر صغيره، كل سيد مع حاشيته وحده وتحمّل كل حبرة حيمة أو طلة يظللون بها على رؤوسهم إذا حطوا الرحاب ظهرا ولتظلل السمن -الذي يدوب في العكك (وتسمى الواحده سمن جرم والجمع حروم) مع حرارة الشمس- لا مد أن تطلى الجروم من الداخل بطبقة سميكة من الدس هذا السمن الذي يساوي أكثر من ٢ جنيه إسترليني في أسواق مكة يجمعه تجار عبيرة أثناء التبريع عن طريق المناصرة مع ألبو ويحفظونه خلال هذه المدة في أحواض من الرخام

هناك أمير يعينه راس على هذه القافلة الكبيرة، وهو من عائلة الأمير ومستلم ريالاً عن كل بعير من إبل القافلة وقد حصل الحبيبي على خطاب من راس بوصي فيه أمير القافلة أن يتعهدني بالرعاية ويحررني على سلامتي إذا تركت القافلة في محطة العين جلسا حول موقد النار تتحدث حتى حد ما التعب ثم استلقينا لفتام هناك، على رمل النفود

ستبقنا مع لعجر وكن لا يزال لدينا بعض الوقت بنافس لنعوذ وكان الأمير وبعض تحار عبيرة اثنين يقصون حكة وينوعون العودة إليهم مع القافلة أمضوا الليل داخل المدينة، وسوت يلحقون بنا على بجانبهم العمانية والعمانية التي تبغ مستين أو سبعين ريالاً هي عبيزة لا تقل قيمتها عن ١٥ ريالاً في موسم الحج في أسواق مكة حيث الطلب عليها كثيراً ولما طلعت الشمس حملت القافلة ونحلت وبعث قليل وصلنا ودي الرمة حيث سونا لمدة ساعتين قبل الظهر ثم برلنا في شعب اشبيبية سليمان الحبيبي حمال يمتلك الرمل، أما حمال السمن لسته التي معه فإن قريبه عبدالله يشركه فيها

ربما كانت الساعة الثالثة فم أن تتحرك القافلة وكانت الشمس الحمره قد انحرقت باتجاه المغرب وعصى حدم الأمير الإشارة بالتحرك بأن صاح بأعلى صوته "الشيل" وفي الحال تقوض المظلات ويؤتي الحمال وتبرك للتحسين ويسارع الجمالون إلى تحميم العكك الثقيلة على ظهور الإبل قبل رحيل القافلة، وهذا عمل شاق يعوق طاقتهم وبدأ ركاب الحائبات بالتحرك ومر ليس على أهمية الاستعداد سوف يفرق الركب ويقف خدام الأمير امام لقافلة مثل الراعي يمد سراعيه ليمسح المتقدمين من المسير حتى يلحق بهم من خلفهم، أو بجري مما وهناك راعيا صوته على من يحالف أوامره ويبداون المسير ولحرقهم من محامل انصهروا، بتحركات مجتمعين

وكان مع سليمان ثلاثة من الحمامين أحدهم، وهو شخص معدم من أهالي عبيرة، كان صاح الحبرة، والأمر يدويا وبعد ساعة وضعوا امامنا العشاء (طلق حار من القمح المطبوخ)، وبعد الأكل ارتفعنا التهو، وجلسوا يتحدثون لبعض الوقت ويدخنون، ثم التحف كل معا عناته ومنا على الرمل، لتعفو فيما تبقى من ساعات قليلة قبل طلوع الشمس،

قبل الفجر بساعة سمعنا الصبحة الشيل، وبهض الفوم مسرعين وحرث الحراس بمرامهم لحامه وعدوا على الجمر ليرفع لها ورموا على النار مزيداً من اعود الحطب لتحترق وتضيء لنا المكان

ولا تسمع إلا الرجال بأصواتهم لحشة وهم يجهبزون للرحيل. ويزدحم المكان بالإنبل التي لا تسمع إلا رعاتها وتداعب. ولن تمر بتيقفتن أو ثلاث إلا والجميع على أهبة الاستعداد الراكسون يمتلئون مطاياهم وإنشاء يلثون يتحصنون المكان في سوء الشفق الباهت لتأكد من أنهم لم يتركوا شيئاً خلفهم يتحرك الجمع وتبدأ مسيرة يوم جديدة تسمر أثناء حرارة النهار الطويل حتى المساء وبعد رحلة ثلاث ساعات في صحراء منبسطة وصلنا أروس الذي لم يتروّد أهله منذ جيلين في قطع بحيلهم ليعملوا منها معاريس وصنوا بنسالة فحمات جيوش إبراهيم باشا. أرسل الأمير ذلولاً إلى البلد ليستطلع الأخبار وعاد النجاب ليخبره بأن نافذة السمن التي تعطلت من أروس قد غادرت من قبل مع نافذة برودة التي مرت بهم منذ يومين.

أحضر لي هذا اليوم أحد عملاء ابن سمام الخطاب لوحه من رامل إلى إبراهيم، أمير القافلة اشترى بحسن وصفي ورث إبراهيم هذا مهنته من أبيه الذي كان حتى عهد قريب أمير قافلة مدينة عبيزة وهو ابن أخت لرامل. إنه شاب في العشرين قدوة عليه أمارات الرجولة والنحوه وقد دعا في مرة لتناول العشاء معه حينما نزل في المساء. رشياب التحار العائدين إلى مكة حيث دكاكينهم هناك وبعضاً من رؤساء الخبر يمتدلي كل منهم ذلوله ويدفعها يسير في ركب إبراهيم يتقدمون لقافلة في مسيرتها. وبين انقبة والفيئة يتوقفون ويوقدون ناراً من الأعواد التي يجمعونها لعمل القهوة وقد وجدت الركوب في مؤخره القافلة حيث السير بطي، أريج لي

إنها صبيحة اليوم الخامس ونحن ما ولنا نغذ السير في هذه البلاد المرتفعة، المليئة بالجبل، ومعظمها من حجر الغرايت، وأنسها ذات أشكال قريبة، حيث ر صحر الغرايت تنفرش على شكل صفائح بل أحباباً على شكل قباب مستديرة وعلى شكل حراشيف ومن علامات الطريق جبل باروت في شبه عجب يسمونه "درب الديب". وقبل الظهر وقعنا على آثار غزو عظيم، وهو، كما يذكر ذلك الغزو الذي شهده مؤخرًا ابن رشيد ضد عتيبة. وقبل الظهر سمعنا صوت النذير ونوقعت القافلة، معتقد البعض أنهم طالعوا بدوا هب الجميع إلى أسلحتهم، ومعظمهم تطلق النار في الهواء ليغريها بنادقهم ويغريها بالنخيرة من جديد. أما الحماميل المرتفقين من السير على أقدامهم فقد بدأوا يتفرون ويرقصون ملوحين برماحهم في الهواء. واقترب الركبان بعضهم من بعض وصارت القافلة تسير مجتمعين وبانتظام وسليمان الذي كان أول من استصرح بدقيته من حنايه، ركب واضعاً بدقيته التي يشتعل قنبلها في حصنه، وكان يرمجر ويصر أسنانه من الغضب وكانت هذه سيرة الباقين، وأشد حماس أهل القافلة الذين يطلبون من الله أن يمكنهم من إبادة أعدائهم اللدودين، ذئاب الصحراء البشرية. وأرسل إبراهيم نفراً يسرون خبر الأعداء، المنربصين لكنهم عادوا بعد قليل ليؤكدوا أنه تدن لهم أن ما رأوه كان مجرد أشجار صحراوية بعدها صاح خادم الأمير منادياً بمواصله السير.

وهي كل من تنزل فيه أرى مدكر في خيمة إبراهيم، فهو يبرل مع الأمير هذا الشيخ السوي رفو ودليله رافقاً ليدلنا الطريق أثناء عبور ديار عتيبة ويحمي القافلة في أي مواجهة تتعرض لها مع قبيلته عتيبة كان هو ورفاقه الإثنين أو الثلاثة بمثابة البعوض لما في القافلة.

في المصحى سرك الإس لترعى، وتروم هذه البهائم المسبكة في الصحراء لكن أغواها انني جفت من شدة النصف لا تستطيع أن تمصع إلا ما تقتطفه خلال سيرها السريع في الصباح الباكر حيث لا يزال تأثير برودة الليل على الأرض قوياً، هذه البهائم المصحمة أحمالها وتعرق وتكاد تمنع لشدة عطشها عن الأكل حتى نهاية اليوم السابع عشر، حينما تحط عنها أحمالها في مكة وقال لي

جماعيلنا الأقوياء، يتنوه (من عادة العرب كلهم التشكي بشي، من اللامبالاة من متاعب العيش في هذه الحياة) أن عملهم في الرحلة متعب جدا. يركب أحدهم في الصباح واثنان يمشيان ويعد الظير أحدهم يمشي واثنان يركبان. ومسير قافلة القصيم لا يشبه مسيرة قافلة حجاج الشام التي تتحرك ببطة، فهم يحثون ركائبهم في حمارة القيط من مورد لآخر. والموارد بعيدة بعضها عن بعض، ولا بد من الوصول إلى المورد التالي قبل اليوم الرابع من مغادرة المورد الأخير وإلا سقطت الإبل من الإعياء.

بعد ثلاثة أيام بدأ ينقد صبر رجال القافلة وصاروا يزجرون مطاياهم بأصوات مشحونة تصدر عن رجال على حافة اليأس. يحثون قلائصهم لتتخذ سيرها ويلكثونها برؤوس رحاحهم ينهرونها ويندبونها ويدعون عليها بالويل والثبور، يامل الظير، يامل الذبيح، ولو تلكأت لحظة لتقطف غصنا صاحبوا بها "يامل الجرع"، "حي لا بارك الله بك". ويجب على الجمال ألا يصرف نظره عن حمل بعيره لأنه من عادة البعير إذا جاء منطقة رملية أن ييمرك ويتمرغ فيها ليسكن الحكة التي نهش جلده، ولو حدث ذلك تحطم الحمل. ومع مرور كل يوم تزداد طباع أهل القافلة شراسة ويقل كلامهم ولا يتكلمون إلا بشق الأنفس. أما الجمالون الذين يحسون حرارة العطش في حلو قنهم فإنهم لا يتلفظون إلا فزرا وبعبارات نابية، مثل أنا ولد أيوي، أنا أخوك ياختي.

وفي مضجنا بلغت درجة الحرارة ١٠٢ فهرنهايت في الظل، وقدمنا موعد تحركنا واستعجلنا لنترك الماء الذي وصلناه قبل الغروب بساعتين. هذه عفيف، مورد قديم عمقه عشرة أبراع وهو مطوي بالحجارة البازلتية الخشنة. وأسرع سليمان مع بقية أعيان القافلة وتقدموا إلى الماء بعدتهم، كل منهم يحاول أن يسبق الآخر إلى فرمة البئر ليحجز مكانا للرأي. ولما وصلناهم وجدناهم واقفين كل مع عدة السقي التي تتألف من عمود خشبي سميك يغرس في الأرض ويثبت بالحجارة وتثبت الحالة في رأسه المشقوق، كذلك التي يستخدمها البدو في قلبانهم العميقة، وبدون هذه الطريقة لا يستطيعون جذب الماء. ويجذب الرشاء وجلان يسيران إلى الخلف ويقف الثالث على حافة البئر ليستلم الدلو المملوء إذا ارتفع ويفرغه في حوض الإبل، والذي هو عبارة عن قطعة من الجلد أو السجاد تفرش على حفرة كانوا قد حفروها بالحصى والعصي وأيديهم العارية في الأرض الصلبة المغطاة بالزلط. وسقيا هذا العدد الضخم من الإبل على بئر واحد يتطلب جهدا كبيرا من الرجال الذين يعملون بأقصى طاقتهم ولا تسمع إلا أهازيجهم التي يرددونها بصوت واحد مثل البدر.

تسلك القوافل التي تنطلق من القصيم إلى مكة طريقان: الدرب الغربي وموارده عديدة ومتقاربة، وهذا هو الطريق الذي سلكته من قبلنا قافلة بريدة والرس، ويسمى الدرب السلطاني. والدرب الأوسط الذي نحن عليه وتسلك القوافل المسرعة وموارده متباعدة ومن يسلك يسلم من الاحتكاك بالبدو لأنهم لا يقطنون على موارده في القبط. ولا يجزأ أصحاب القوافل على السقيا من المارد التي يقطن عليها البدو الذين لا يؤمن جانبهم. في مثل هذه الحالة يأمر أهل القافلة البدو بالرحيل، فينصاعون لأوامر الحضر على مضض. أما إذا كان البدو القاطنين كثيرين ولا يستطيع الحضر ترحيلهم فإنهم يتناوبون معهم على الماء ويسقون بسرعة وأسلحتهم بأيديهم ثم يسوقون الإبل التي لم تأخذ كفايتها من الماء إلى المورد التالي. ومعظم الموارد في هذه الصحراء مأوها مالح.

عفيف التي توقعنا فيها لنستريح أرض منخفضة تحيط بها الجبال البازلتية. ورأيت الأحجار البازلتية الخشنة على فرمة هذا البئر تغطيها قشور الكس الأبيض وأحدثت فيها حبال البدو اللينة شقوقا غائرة. وتنمو هنا بكثرة أعشاب الضرم الطويلة المعترشة التي سبق لي رؤيتها على طريق الحج

الشامي. رسيقت إبلنا التي لم تطعم شيئاً إلى المرعى. واعتلى رفاقنا أصحاب مذكر من قبيلة عتيبة المرقب، وهو جبل بارز في بالقرب منا، للمراقبة. وكانت حرارة الشمس شديدة على رؤوس رعاة الإبل، لأن حرارة الشمس التي يمكن للمسافر أن ينحملها وهو يتحرك في الهواء لا تطاق حتى بالنسبة للبدوي في حالة التوقف. واشتكى لي أحد "الملاحين" من أشعة الشمس التي صار يغلي منها. وماغه وقبيل المساء رأينا إشارة الخطر تصدر من رفاقنا في المرقب! وأحضرت الإبل بسرعة. لقد شاهد الرقباء زول يعتقدون أنه بنوي. ولكن تبين لهم بعد قليل أنهم أربعة "أزوال" وراكبين حميرهم. إذا وصل أمير القافلة إلى المخزل الذي يريد أن يتوقف فيه شد خطام ناقته وخطبها بعصاه على الرقبة وصوت لها لتنيخ. وتبدأ البهيمة المتعبة ترغي وتثني ركبتيها وتنبور حول نفسها كما يفعل الكلب إذا هم بالربوض. ويتبع أعيان القافلة أميرهم وينزلون معه ويحرصون على أن يتخذ منزلهم شكلاً دائرياً، ثم يسوقون الإبل إلى حيث تترك ويغزلون أحمالها.

قبيل الظهر وقفنا على آثار أدبش البدو قادمين من جهة الحرة إلى حيث توجد آبار جيدة للسقيا في طريقنا. وفي الضحى كان قد نال منا العطش، ولم نذق من الماء إلا تلك الجرعات المرة من ماء شربة العكر ولن نصل الماء إلا بعد حلول المساء أو صباح الغد. وجدت درجة الحرارة في الظل ١٠٧ درجة فهرنهايت وبدأ يهب علينا السموم. وفي المظيل لا يتناول أصحاب القافلة إلا القمح وما تبقى من عشاء البارحة من الرز أو الثريد. ويأكل الأعيان والرعيان من قصعة واحدة ولكنهم اليرم لم يستطيعوا أكل شيء من شدة العطش. ذهبت إلى خيمة إبراهيم وابن بسام -كل منهم يحمل عشر قرب من الماء- لأطلب فنجاناً من القهوة أو من الماء. وأعطاني رجالهم رشقة من الماء لا غير، لأن هذه طريقة العرب في السفر.

بعدما تركنا خلفنا جبال الاكموم وهكران تنبعت إلى حركة في مؤخرة القافلة ورأيت البعض على ركاتهم يتقدمون القافلة بسرعة خاطفة. ساروا مسرعين يبحثون عن بعض الثمائل التي لا تبعد كثيراً عن الطريق. ولما وصلوا قفز كل منهم في حفرة الماء ليملا قريته. ووقف في الماء الوحل الذي غمره حتى منتصف قامته. وسارع كل من الناس العطش إلى الماء وشرب ملياً إنائه. ولم يتنبهوا إلا بعد ذلك إلى أن الماء لم يكن نظيفاً.

وفي الليل أرسل إبراهيم بعض الركبان ليحسروا لنا الماء أمامنا، والذي كنا نأمل بوصوله أمس. ويخبرونا إن كان البدو يقطنون عليه. طلعت علينا الشمس ونحن ما زلنا نستريح في هذا المكان الجميل. وبعد طلوع الشمس بنصف ساعة رأينا روادنا يعودون حاملين معهم الأخبار بأنهم لم يلقوا إلا بدوا قليلين على الماء من عتيبة وأنهم تحدثوا مع واحد منهم وجدوه في الصحراء فدعاهم ليستقيهم من حليب نياقه. بقينا في مكاننا ونصمينا خيامنا. ونحروا قاطوا رزعوها على الخبر التي اشترت من لحمها. وقد استاقوا مع القافلة ثلاثاً أو أربعاً من هذه الجزر، وبهذه الطريقة يتنوق رجال القافلة المتعبون اللحم كل بضعة أيام.

انطلقت القافلة ظهراً وامتدت أمامنا السبخة المستوية التي تصل إلى سيف الحرة وإلى اليسار منا يمتد أفق الصحراء. ومررتنا ما بين جبل مكران المنخفض وأطراف الحرة. ومع غروب الشمس دخلت القافلة جانباً مجوفاً على حافة الحرة صخور البركانية ثقيلة وبارزتها. هنا مورد من عدة آبار، المويه، أو مويه الشعيب، أو أمواه مكران، وهو مورد رئيسي من موارد العرب.

وجدنا البدو كانوا قد غادروا المكان ومع ذلك فإننا نزلنا وقت الغسق قبل الوصول إلى الماء بمسافة ليست بالبعيدة، لأن المكان في هذه الأشهر يعتلى بالصخور. وأرسلت كل خبيرة رجالاً إلى الأبار

ليملأ ثربهم من مائها ليشرّبوا. رتب أصحاب القافلة منزلهم على شكل دائرة ملمومة خروفا من مفاجات الصحراء. وأشعلت النيران للطبخ وعمل القهوة. كانت الليالي مظلمة فاستعدوا للحراسة. يظل في كل خبيرة شخصا متيقظا للحراسة، ويتناوب الحراسة ثلاثة أشخاص حتى مطلع الفجر. وذكر لي سليمان أنهم في قوافل الحج السنوية التي تحمل البضائع الكثيرة والفضة يفرسون بالحراسة الليلية طوال هذا الطريق الصحراوي الطويل.

في الصباح الباكر ساق القصصان إبلهم إلى المورد ليسقوها حاملين أسلحتهم بأيديهم وكان عملهم سريعا نظرا لكثرة الآبار. وغادرت القافلة بعد طلوع الشمس بساعتين، وكان هذا اليوم الثالث عشر من مغادرتنا عنيزة. ولم نقابل أحدا من البشر منذ تركنا القصيم، ولكننا الآن نرى قليلا من البدو يتودون إبلهم إلى الماء ليسقوها. ولم يتغير منظر السهوب عن حولنا، تتناثر قمم من صخور المرو، أكوام من البياض اللامع تراها في هذه الأرض. مررتنا بدار، أو منزل قديم مهجور من منازل البدو، وآبار ماعها مالح. الجبال المرتفع من حرة كسب يتجه معنا دائما حيثما نسير، وشاهدت فيه عبر الصحراء أشجار الأكاشيا الخضراء وثلال عالية من الرمال المتحركة أراها عبر الصحراء. وبدت لنا التلال البركانية التي لا نكاد نراها في ضوء الشمس التي لفها النشاص (هذه اللابات العظيمة غمرت الصخور البلوتونية، على خلاف حرات خيبر والعويرض التي يغطيها الحجر الرملي). ولا تزال السبخات تعقد بين طريق القافلة والحرة. هذا هو ما نشاهده من تضاريس بشعة المنظر في الطريق من نجد إلى مكة. يبلغ ارتفاع هذه القفار حوالي 1٢٠٠ قدم.

توقفنا في الظهيرة واستعجلنا في نصب الخيام لتقينا حرارة الشمس. واتجه نحونا تادم من الخلاء بدوي راكب ذلوله. أخبرنا هذا الرجل الودود من عتيبة أن قافلة بريدة على ماء مران، هناك أسفل من الحرة. وعصف علينا هبوب السموم من الغرب أثناء سيرنا بعد الظهر. وأنشأنا للمبيت مع غروب الشمس. إلا أن بعض رجال القافلة، لما سمعوا أن هناك آبارا غير بعيدة منا، ركبوا ليملاؤا القرب بالماء، لكنهم عادوا بدين ماء، لأنهم وجدوه، كما قالوا لنا، مالحا وطعنه كبريتي.

أثناء مسيرنا في المساء رأينا قطعان البدو من الأغنام يرعاهم أطفال عراة. كان أولئك البدو الصغار نحيلي الأجسام وبشرتهم بنية بلون الجوز من لهيب الشمس المحرقة. شاهدنا إبلهم أمامنا راقرب منا الرعاة ليسألونا عن الأخبار. وجاءنا خيال راكبا فرسه العاري من السرج ودفعه بجرأة في وسطنا. وأصبحنا نرى بيوتهم السود. هؤلاء هم عرب الشيبانين من عتيبة. كانت الشمس تتحدر نحو المغرب وابتعدنا قليلا عن قطين البدو ونزلنا. وجاءنا بعض نساء البدو يسألن أهل القافلة إذا ما كان لديهم قماش للبيع. لكن القصصان قالوا لي إن قصدهن التجسس على مخيمنا وإذا ما كان هناك شيء يمكن سرقة بالليل. لاحظت عيونهن حادة البصر بشرتي البيضاء وسألن "من هذا؟ من هذا الغريب بينكم؟"

وفي الغد وصلنا مسيرتنا وسط قطعان البدو، وكلها هنا وبرها أبيض. في هذه الصحراء المدارية رأيت بعض النباتات المنزلة من صبار المفصليات المزهرة "الفلاشي" الذي يستخدمونه لعلاج الإبل، يدهن به البدو أنوف إبلهم المريضة. والأرض خليط من الرمل والزلط البلوري. وقبل الظهر بساعتين وصلنا إلى عرق آخر من عروق اللابة البازلتية وصادقنا إبلا لهؤلاء الشيبانين صادرة من مورد الشعراء وكانت تبرك غير بعيد منا. هذه الإبل العتيبية لونها بني وقليل منها لونها يميل إلى السواد وكلها صغيرة الحجم. كان الرعاة شباب جريئون وينكمون بطلاقة. وحينما مررت راكبا أمام بيت منعزل رأيت داخله امرأة مع ابنها فسلمت عليها وردت علي بطلاقة "مرحبا، مرحبا". حينما اقتربنا من

منازل البدو بادر رفاقنا في القافلة. كعادتهم في الحذر من البدو، باستخراج بنادقهم الطويلة من أخبيتها وأشعلوا الفتائل وظلوا ركبين وبنادقهم على ركبهم.

وقابلنا شاب بدوي رشيق جاء، ليسقي إبله وكم كان وسيما وجه ذلك الشاب وهو يرتدي رداءه المكي الأزرق، وهذا اللون في نظر أهل الشمال لا يلبسه إلا النساء. وتساقطت ظفائره الحائكة السوداء متناثرة على أكتافه. وصاح راعي إبلنا العنزي، الذي بحكم أنه بدوي يكره كل البدو الذين لا ينتمون لقبيلته، "هيه يا ولد، أقول يا رب، أيك هذا رجال ولا مره؟" وكاد الشاب المسكين أن يتميز غيظا ونظروا إلينا شذرا بعينيه الجميلتين وكاد أن ينفجر بالبكاء.

أمضى أصحاب القافلة ليلتهم هذه متسلحين. وكانت إغفامتنا تقطعها صيحات التحذير وطلقات البنادق التي لم تتوقف حتى الصباح وأمضينا الليل ونحن عرضة للخطر من هذه الطلقات التي تصدر من مخيمنا. والبدوي الذي يقبضون عليه وهو يتلصص يحضرونه إلى خيمة الأمير، وقالوا لي إن عقوبته الضرب حتى الموت. ولا يكاد يفوت يوم دون أن يُفقد شيء من القافلة، ومن المحتمل أنه ترك على الأرض أثناء ركوبنا في الظلام قبل انبلاج الصبح. وإذا وصلنا منزلنا التالي قام صاحب الحاجة المفردة يصيح بين يديه المضمومتين إلى فمه يعلن عن فقدانه هذا الشيء أو ذاك ويطلب من أي شخص عثر عليه أن يخاف الله ويعيده.

جاء إلينا بعض البدو في الصباح وحالما رأوني سألوا بإلحاح من أكون، وسألتهم أصحاب القافلة عن أسعار السم في مكة. وحينما غادرنا، بعد أن أسقينا الإبل مرة أخرى، جاء بدوي واندس في القافلة، وكانت ملابسه رثة مثل غيره من البدو ولكنه كان وسيما مقارنته بالحالة المزرية لهؤلاء الحضر الكادحين. لكن راعي إبلنا العنزي بلسانه السليط لعن أباه الذي خلفه وأمره أن يبتعد عنا! لكن العنبي استل طرف سيفه من غمده وابتسم ابتسامة البدو المهذبة، فهو لا يخاف من الحضر وسط ديوت.